



بشائر السليمية

هوية اللغة ولغة الهوية

في مقاله (اللغة والهوية: إشكاليات المفاهيم وجدل العلاقات) يناقش فيصل الحفيان ثلاث نقاط: مفهوم اللغة، ومفهوم الهوية، متحدثاً عن إشكاليات المفاهيم وجدل العلاقات. بادئ ذي بدء تُعد اللغة حصناً قوياً للأفراد والجماعات ويرونها ”مقوماً من المقومات التي تحفظ لهم ملامحهم وفكرهم وشخصيتهم“. فيورد الحفيان في مقاله تعريفات عديدة للغة مجرداً إياها من الهوية. فتذكر المعاجم اللغوية أن كلمة ”لغة“ مأخوذة من الجذر اللغوي (لغو) أو (لغي) الذي تدور معانيه حول الرمي أو الطرح أو اللفظ ولم يأخذ القرآن الكريم مادة ”لغو“ بالمعنى الذي أخذنا منه كلمة ”لغة“ حيث أوردتها مرتبطة بمعاني العيب والفحش، وقبيح القول والفعل، واليمين غير المقصودة. ”والذين هم عن اللغو معرضون“.

(تمثيلات عقلية نفسية) تكفي لإكمال (ذاته العربية)، ولكنه في الوقت ذاته، لا يطبق الانفكاك من كونه (عربياً). فالثقافة المحيطة به - وإن كانت في أضعف حالاتها- قادرة على خلق تمثيلات كافية لتوريطه ب(الهوية العربية) التي يريد هو أن يهرب منها“.

وفي الحديث عن اللغة كونها (نسيجاً) يحوي عدة خيوط، فإن كل جماعة تقيسه حسب تركيبها وبنائها، فبعضها تقدم خيطاً على آخر في هذا النسيج وبعضها تلغي خيطاً من خيوط هذا النسيج، فالماركسيون مثلاً يرون أن الهوية هي حصيلة خمسة خيوط فقط هي: اللغة، والتاريخ، والتكوين النفسي والثقافي، والاقتصاد، والجغرافيا. والألمان لا يضعون في حسابهم سوى العرق أو الجنس، واللغة، والفرنسيون يعتمدون خيط الإرادة أو المشيئة الذي يقوم بدوره على الجغرافيا والاقتصاد، والقوميون العرب يركزون على اللغة والتاريخ. والقوميون السوريون على (الأرض). والإسلاميون على الدين“.

بعد ما سبق لابد أن يتبادر إلى أذهاننا: إمكانية ترتيب هذه العناصر على وفق أوليتها ودرجة أهميتها في صياغة الهوية. فالحفيان يرى أن الدين في طبيعتها - يرتبط بالبنية العميقة للإنسان - تليه اللغة ثم التاريخ- مجموعة كبيرة من المشتركات للجماعة البشرية - وهناك الجغرافيا - تقرب الجماعة البشرية - وأخيراً العرق، وقد أحره الحفيان لأن ”الكثيرين يرون أنه لا توجد اليوم سلالة متميزة“.

ثمة نظريات في فكر الهوية كشفت لنا موقع اللغة على خريطةها، ظهرت هذه النظريات في أواخر القرن الثامن عشر والقرنين التاسع عشر والعشرين. كل منها ارتكزت على عنصر من عناصر الهوية لكن أغلبها كانت ترتكز على اللغة وبعضها أضافت إليها، وأخرى غيبتها كالنظريتين الفرنسية والإيطالية. ختاماً، إن هذه العناصر المكونة للهوية لها ظروفها التي تجعل منها إما ظاهرة أو مغيبة أو مضافة لعنصر آخر، وجل هذا على الجماعة المشتركة فيها، وحسب ما ينبع من داخلها وما يدفع بها من خارجها.

أن اللغة ليست المقوم الوحيد للهوية، وإن كانت أهم هذه المقومات، وأشدها خصباً وعمقاً وتركيبياً. إن العلاقة بين اللغة والهوية هي علاقة الخاص بالعام، فالهوية أعم من اللغة؛ لأن الهوية لها تجليات عديدة غير اللغة“.

بينما يقول البريدي: ”هنالك تحاشد في آراء الباحثين والمفكرين العرب لتأييد أن اللغة (هوية)، وليست مجرد أداة تواصل، غير أن هذه المقولات افتقدت إلى البرهنة على صحتها“ . لو خصصنا ذلك فأقول إن العربية هوية لكن اللغة العربية هي إحدى قسّمات الهوية العربية، يقول البريدي في موقع آخر: ”نخيلوا معي لو أن عربياً يعيش في المهجر، وفقد تعمداً لغته العربية بغية التخلص من (ذاته العربية)، فإنه يعيش في مرحلة يمكن نعتها ب(الهوية الباهتة). ف(عربيته منتقصة) من جهة الأفكار واللسان، مما يعيشه وضاعاً لا يتوافر فيه على

وإذا تحدّثنا عن العلاقة بين اللغة والكلام فيقول عبد الله البريدي في كتابه (اللغة هوية ناطقة): ”اللغة حقيقة اجتماعية أو لنقل كائن اجتماعي، أما الكلام فهو عمل فردي أو لنقل صنعة الإنسان“.

يورد اللغويون تعريفات كثيرة للغة، ركز الحفيان منها على تعريف ابن جني الشهير (أصوات يُعبر بها كل قوم عن أغراضهم). -إضافة لكونها وسيلة وظاهرة إنسانية جمعية-، والذي حلله الحفيان على أنه منظومة لغوية تتكون من ثلاثة عناصر (الأصوات، الناس، والأغراض)، ”والربط بين الأصوات والأغراض يُشير إلى مسألة معروفة هي أن اللغة حقيقتها انعكاس للفكر“. أنا أفكر أنا أحدث بما فكرت بواسطة لغتي التي يفهمني بها غيري وبهذا عبرت عن فكري. والسؤال الآن ما الذي يعنيه فقد عنصر من عناصر هذه المنظومة اللغوية؟

إن فقدان عنصر من العناصر أنفة الذكر يعني انعدام كون ما تبقى لغة، فالأصوات الصادرة من غير البشر -أصوات الحيوانات- ليست لغة، كما أن الإشارات الصوتية التي يصدرها البشر -الإيماءات - هي أصوات غير لغوية.

يورد الحفيان فيما بعد تعريف الهوية مجرداً من اللغة، وأستعين في هذا مجدداً بما وضعه د.عبد الله البريدي في كتابه اللغة هوية ناطقة والذي صدر مع المجلة العربية في عددها ١٩٧٧. ف(الهوية مصطلح مشتق من أصل لاتيني يفيد أن الشيء هو ذاته أو هو ما هو عليه أن هوية الشيء=ماهيته.. بقي علينا قبل أن نلج إلى قضية امتزاج اللغة والهوية أن نفرّق بين الهوية الاجتماعية والهوية الشخصية، فالأولى ”تتشكل في إطار انتماء الإنسان لجماعة ما“ والثانية ”تنبع من عوامل شخصية صرفة“.

بعد أن عرّف الحفيان اللغة والهوية كلاً على حدة، يتوقف الآن على امتزاجهما معاً ومكانة كل منها ضمن منظومة الآخر. فهل يمكن أن نعتبر أن اللغة هوية؟ وهل يمكن ذلك في ظل علاقتها التفاضلية - اللصيقة- بأصحابها؟ وفي ظل ارتباطها بالدين - كالعربية- واكتسابها لقداسته؟ يقول الحفيان: ”اللغة هوية، وليست ”الهوية“ لغة، بمعنى

